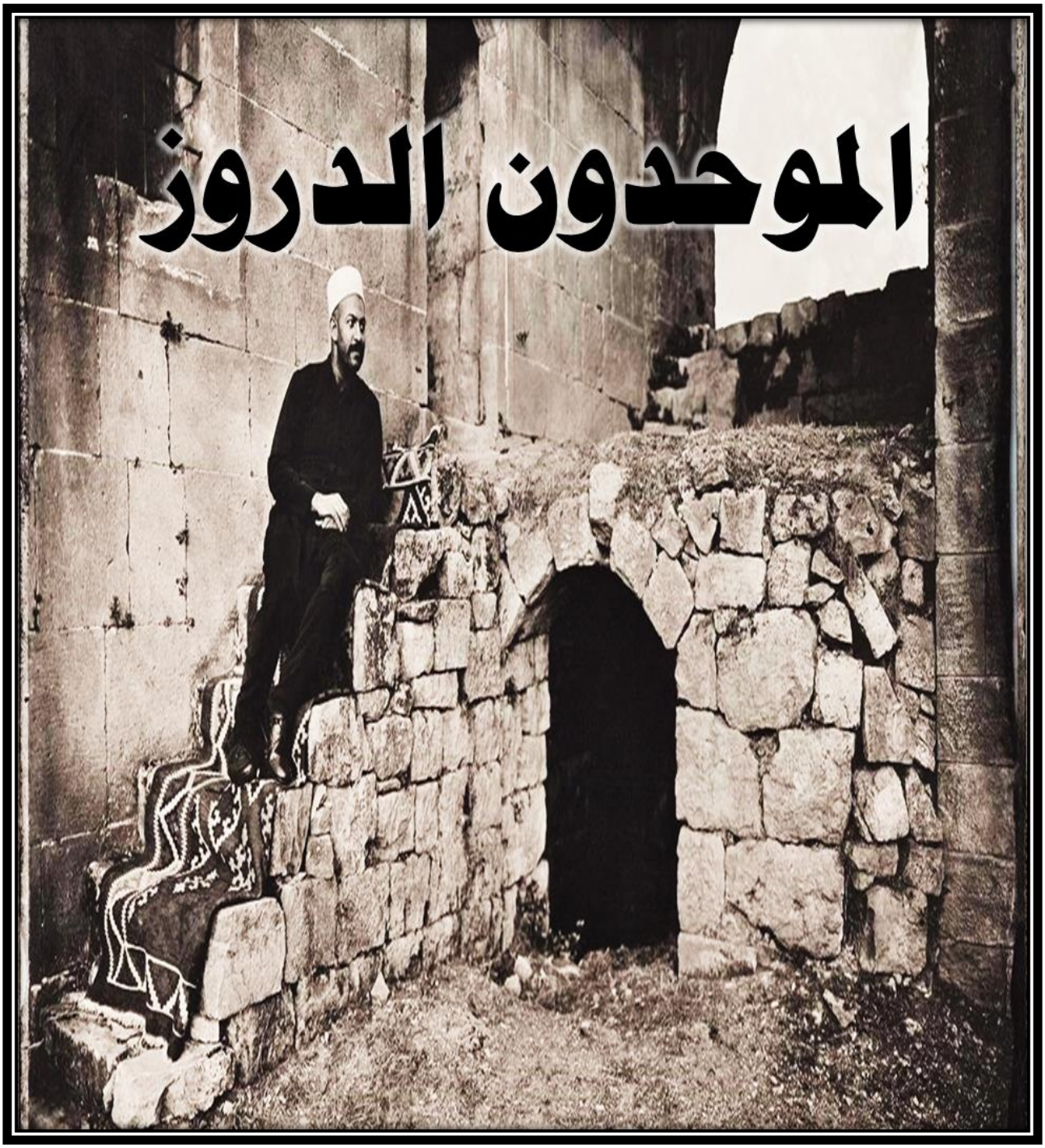
الموحدون الدروز

الموحدون الدروز

تأسست الدعوة الدرزية (أو مذهب التوحيد) في القاهرة الفاطمية بالقرن الحادي عشر الميلادي على يد مجموعة من الدعاة والمفكرين الباطنيين . ورغم أن المذهب ينسب تاريخياً في الأدبيات العامة إلى "الحاكم بأمر الله" كـ(مَظهر لاهوتي)، إلا أن التأسيس البشري، والفكري، والتشريعي للمذهب قام على أكتاف ثلاث شخصيات رئيسية اختلفت مصائرهم وأدوارهم بشكل جذري:

1. حمزة بن علي بن أحمد الزوزني (المؤسس الحقيقي والمنظر الأول)هو العقل المدبر، والـمُشرّع الفعلي، والزعيم الروحي الأول للمذهب.

دوره: أعلن بدء "دعوة التوحيد" رسمياً من مسجد ريدان في القاهرة عام 408 هـ (1017 م) بمباركة الحاكم بأمر الله.

مكانته: يُعتبر في العقيدة الدرزية الشخصية الأهم بعد الحاكم، ويلقب بـ "قائم الزمان" أو "العقل الكلي" (الحد الأول من الحدود النورانية).

إرثه: هو الكاتب الفعلي للغالبية الساحقة من الرسائل الفلسفية واللاهوتية التي تشكل كتاب "رسائل الحكمة" (الكتاب المقدس للدروز)، وهو الذي وضع أسس إسقاط الشريعة الظاهرية واستبدالها بالخصال السبع .

2. محمد بن إسماعيل الأنوشتِكين (نَشْتَكين الدَّرْزي)هو الداعية الذي تُنسب إليه الطائفة اسماً (الدروز)، والمفارقة التاريخية الكبرى أن الدروز يكرهون هذا الاسم كلياً ويعتبرون "الدرزي" شخصاً مارقاً وخائناً لدعوتهم، ويفضلون وصف أنفسهم بـ "الموحدين".

دوره: كان أحد دعاة الحركة الأوائل، لكنه اتسم بالتسرع والراديكالية؛ إذ قام بإعلان ألوهية الحاكم بأمر الله علناً في شوارع القاهرة قبل الموعد المحدد والتمهيد الفلسفي الذي وضعه حمزة بن علي.

الانشقاق والنهاية: تسبب إعلانه العنيف في ثورة شعبية عارمة من أهالي القاهرة (السنة والشيعة) ضد الفاطميين. اختلف معه حمزة بن علي واتهمه بالطمع في الرئاسة وتشويه العقيدة وتحويل التوحيد العرفاني إلى إباحية ومروق، فتم تكفيره وطُرِد من الدعوة، وقُتل لاحقاً في القاهرة (أو هرب إلى الشام وقُتل هناك)، لكن اسمه ظل ملتصقاً بالحركة تاريخياً عبر خصومهم .

3. بهاء الدين السَّمُوقي (المعروف بـ "المُقتنى بهاء الدين")هو الرجل الذي حافظ على الطائفة من الفناء والتشتت بعد الاختفاء الغامض للخليفة الحاكم بأمر الله عام 411 هـ وتوقف الدعوة في مصر.

دوره: تولى زعامة الدعوة بعد اختفاء الحاكم وتواري حمزة بن علي عن الأنظار بسبب الملاحقة العنيفة التي تعرض لها الموحدون على يد الخليفة الفاطمي الجديد (الظاهر لإعزاز دين الله).

إغلاق باب الدعوة: قاد بهاء الدين التنظيم السري للمذهب من الشام، وأرسل الرسائل والمواثيق للدعاة في مختلف البلدان، وهو الذي اتخذ القرار التاريخي الخطير بـ إغلاق باب المذهب ومنع قبول أي منتسب جديد عام 435 هـ (1043 م)، معلناً أن زمن الاختبار قد انتهى، وجَمَع التراث الفكري للحركة في كتاب رسائل الحكمة قبل أن يتوارى هو الآخر.

خلاصة التراتبية الروحية (الحدود الخمسة)هؤلاء المؤسسون (باستثناء نشتكين الدرزي المطرود) صِيغت أسماؤهم في الفلسفة الدرزية على شكل نظام كوني يُعرف بـ "الحدود النورانية الخمسة"، وهم الأنبياء الباطنيون للمذهب:

حمزة بن علي (العقل الكلي)

أبو إبراهيم إسماعيل بن حامد التميمي (النفس الكلية - صهر حمزة ومساعده الأول)

محمد بن وهب القرشي (الكلمة)

سلامة بن عبد الوهاب السامري (السابق أو الجناح الأيمن)

بهاء الدين السموقي (التالي أو الجناح الأيسر)

الحدود الخمسة والراية ذات الألوان الخمسة (النجمة أو العلم الخماسي) هما جوهر المنظومة العقائدية والفلسفية للموحدين الدروز؛ فالألوان على الراية ليست مجرد رموز وطنية أو سياسية، بل هي تجسيد مادي ومرئي للحدود الروحانية الكونية الخمسة التي يدور عليها فلك المذهب.

التفكيك الفلسفي والديني للحدود الخمسة ومعاني ألوانها بالترتيب:

1. الأخضر 🟢 (العقل الكلي)المرتبة الروحية: هو الحد الأول والأنبل في التراتبية الروحية، ويُمثل "العقل الكلي" الذي فاضت عنه بقية الكائنات، وهو الواسطة المباشرة بين لاهوت الحق (الخالق) وبين بقية الحدود.التجسيد البشري: يُمثله في عصر القاهرة الفاطمية المؤسس والمنظر الأول حمزة بن علي بن أحمد.

2. الأحمر 🔴 (النفس الكلية)المرتبة الروحية: يُمثل "النفس الكلية" التي انبعثت وفاضت عن العقل الكلي (الأخضر). هو القوة المندفعة التي تحرك الكون، ويتلقى نوره وعلمه مباشرة من الحد الأول.التجسيد البشري: يُمثله أبو إبراهيم إسماعيل بن حامد التميمي (صهر حمزة بن علي ومساعده الأيمن).

3. الأصفر 🟡 (الكلمة)المرتبة الروحية: يُمثل "الكلمة"، وهي صلة الوصل والتعبير التي تنقل المعارف التوحيدية من النفس الكلية (الأحمر) وتصيغها لتصبح قابلة للفهم والإدراك في عوالم البشر.التجسيد البشري: يُمثله الداعية محمد بن وهب القرشي.

4. الأزرق 🔵 (السابق / الجناح الأيمن)المرتبة الروحية: يُمثل "السابق" أو الإرادة الكونية. وظيفته في الكونيات الدرزية هي ضبط النظام، وحماية الدعوة وتوجيهها، وتدبير شؤون الموحدين وحفظ نسيجهم الاجتماعي والديني.التجسيد البشري: يُمثله الداعية سلامة بن عبد الوهاب السامري.

5. الأبيض ⚪ (التالي / الجناح الأيسر)المرتبة الروحية: يُمثل "التالي" أو القوة المنفذة التي تختم سلسلة الحدود الخمسة. هو الذي يتولى تبليغ الرسالة النهائية، وتثبيت أركان المذهب، وإغلاق الباب على الدخول أو الخروج بعد انتهاء زمن الاختبار.التجسيد البشري: يُمثله الداعية بهاء الدين السَّمُوقي (المقتنى بهاء الدين).

رمزية النجمة الخماسية (العلم الدرزي)عندما يجتمع هؤلاء الحدود في راية واحدة (سواء على شكل علم مستطيل مقسم إلى خمسة أشرطة، أو على شكل نجمة خماسية ملونة)، فإن هذا التصميم يعكس دمج قوى الكون الخمس:توازن الوجود: يعتقد الدروز أن هذه الألوان الخمسة تحكم الطبيعة والروح؛ فالأخضر يرمز للأرض والنمو، والأحمر للشمس والروح، والأصفر للقمح والذكاء، والأزرق للسماء والحكمة، والأبيض للثلوج والنقاء.

التقوقع العقائدي: اجتماع الألوان الخمسة في شكل نجمة مغلقة يُشير إلى إغلاق باب المذهب؛ فالدائرة الروحية قد اكتملت بهؤلاء الحدود الخمسة، ولا ينقصها شيء، ولا يُسمح بدخول أي عنصر غريب إليها.لذلك، عندما يرفع الدرزي هذا العلم في وادي التيم بلبنان، أو في جبل العرب بسوريا، أو في الجليل، فهو لا يرفع راية جغرافية، بل يعلن انتمائه لهذه المنظومة الفلسفية العميقة التي أسسها حمزة بن علي ورفاقه في القرن الحادي عشر.

أبرز معتقداتهم وأسسهم الفكرية:

التوحيد الصارم وتنزيه الله ،الإيمان المطلق بوحدة الله وتنزيهه عن الصفات والمادية بشكل تام.

رفض تجسيم الذات الإلهية واعتبار أن الله لا شريك له ولا يُدرك بالحواس.

تقديس الحاكم بأمر الله والاعتقاد بأن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله هو تجسيد للروح الإلهية أو العقل الكلي في زمانه (ليس بمعنى الحلول بل التجلي) والاعتقاد بغيبته وأنه سيظهر في آخر الزمان ليملأ الأرض عدلاً.

التقمص (تناسخ الأرواح) الإيمان بأن الروح لا تموت بل تنتقل فور وفاتها إلى جسد بشري مولود حديثاً في هذه الدنيا.

فناء عدد النفوس وثباته، حيث لا تزيد ولا تنقص.

الكتمان والسرية ، فرض سرية التعاليم الباطنية وعدم إفشائها لغير المطلعين أو من خارج المذهب.

انقسام المجتمع دينياً واجتماعياً إلى فئتين: العُقّال (المطلعون على أسرار العقيدة والملتزمون دينياً) والجُهّال (عامة الناس غير المطلعين على الكتب الدقيقة).

إلغاء التكليف الظاهري وتقديس العهد وتأويل الفرائض الدينية كالصلاة والصيام تأويلاً باطنياً مجازياً بدلاً من التعبد الحركي الظاهري المعتاد. (ضرورة الإلتفات إلى الفرق بين التأويل والإنكار)

الاعتقاد بـ "ميثاق ولي الزمان" وهو العهد والتقديس الذي التزم به الأوائل ويُولد كل فرد درزي مرتبطاً به روحياً.

إغلاق باب التوبة والقبول لدخول مؤمنين جدد، إذ لا يقبلون التبشير ولا يُسمح بالانضمام إليهم من الخارج.

الأماكن الجغرافية التي يتواجد فيها الموحدون الدروز اليوم.

تتركز الطائفة الدرزية بشكل أساسي في منطقة الشرق الأوسط، وتحديداً في بلاد الشام، بالإضافة إلى وجود مجتمعات مغتربة في الخارج. و يُقدّر العدد الإجمالي التقريبي للموحدين الدروز في العالم بين مليون إلى مليون ونصف المليون نسمة وفقاً لأحدث التقديرات تتوزع على الشكل التالي :

سوريا: تضم التجمع الأكبر للدروز في العالم، ويتركز معظمهم في محافظة السويداء (جبل العرب أو جبل الدروز)، بالإضافة إلى تجمعات في ريف دمشق (جرمانا) والقنيطرة (الجولان) وإدلب 500000 ~ 700000

.لبنان: يشكلون ركيزة أساسية من نسيجه الاجتماعي، ويتواجدون بكثافة في قضاء الشوف، وعاليه، والمتن الأعلى، وحاصبيا، وراشيا، وبيروت 250000 ~ 300000

فلسطين: يعيشون في قرى الجليل والكرمل (مثل دالية الكرمل وعسفيا)، بالإضافة إلى قرى الجولان السوري المحتل (مثل مجدل شمس، بقعاثا، ومسعدة) 150000

الأردن: يتواجدون بأعداد أقل، ويتركزون بشكل رئيسي في مدينتي الأزرق والزرقاء، بالإضافة إلى العاصمة عمان 30000 ~ 50000

بلاد الاغتراب (المهجر) : فنزويلا والبرازيل تضمان جاليات درزية ضخمة وقديمة هاجرت منذ أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين.الولايات المتحدة وكندا: توجد مجتمعات درزية نشطة ومنظمة في ولايات ومدن كبرى مثل كاليفورنيا وتورونتو.أستراليا وأوروبا، لا سيما في بريطانيا وألمانيا والسويد. 200000

ما هي جذورهم التاريخية والتي تجمع عليها المصادر التاريخية المحايدة والمعتبرة وكتب الأنساب والمؤرخين بمن فيهم مؤرخو الدروز أنفسهم مثل الأمير حيدر الشهابي ؟

الأصل القبلي والقدوم في العهد العباسي قبائل تنوخ العربية : ينتمي التنوخيون إلى اتحاد قبلي قحطاني هاجر قديماً من اليمن بعد سيل العرم (انهيار سد مأرب) واستقر في الحيرة بالعراق (وهم بناة مملكة المناذرة) .في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، زادت غارات الإمبراطورية البيزنطية (الروم) عبر البحر على سواحل بلاد الشام. استدعى المنصور القبائل التنوخية من العراق وأسكنهم جبال الساحل اللبناني (منطقة الغرب، الشوف، وعاليه) والشمال السوري (جبل السماق في إدلب) لحماية حدود الدولة الإسلامية وصد الغزوات .عند قدومهم إلى جبال لبنان وسوريا وتوليهم إمارة وحماية تلك الثغور، كان التنوخيون مسلمين على مذهب أهل السنة والجماعة وظلوا على هذا المذهب طوال قرون يحاربون لرد المعتدين، وتوطدت إمارتهم في جبل لبنان كقوة إقطاعية وعسكرية محلية منظمة. أما التحول الإستراتيجي والعقائدي فكان في العهد الفاطمي ، فعندما بسطت الدولة الفاطمية نفوذها من مصر على بلاد الشام، تأثرت هذه العشائر وعموم سكان الجبال تدريجياً بالدعوة الإسماعيلية وفي مطلع القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري)، وتحديداً في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، بدأت دعوة التوحيد الباطنية في القاهرة على يد حمزة بن علي بن أحمد وانتقلت هذه الدعوة إلى بلاد الشام عبر دعاة مثل محمد بن إسماعيل الدرزي، فلاقت استجابة واسعة وقبولاً جماعياً لدى الأمراء التنوخيين وعشائر عربية أخرى في جبل لبنان ووادي التيم وشمال سوريا. وهكذا تحول التنوخيون من "حماة ثغور مسلمين سنة" إلى العماد العسكري والسياسي الأول لطائفة الموحدين الدروز. ومن رحم هذا الاتحاد التنوخي برزت العائلات والزعامات الدرزية التاريخية التي تولت قيادة الجبل لقرون (مثل آل أرسلان، المعنيين، والشهابيين لاحقاً).

العلاقة مع الطائفة المسيحية المارونية

تؤكد المصادر التاريخية المحايدة والمعتبرة أن العلاقة بين الدروز والموارنة في جبل لبنان تميزت بالتعايش والسلام والتحالف السياسي لما يقارب 300 عام تحت مظلة "الإمارة المعنية" ثم "الإمارة الشهابية".أما جذور ونشوء الخلاف الدموي الذي بلور "المسألة اللبنانية" في القرن التاسع عشر (وتحديداً بين عامي 1840 و1860)، فلم تكن نتيجة خلافات دينية عقائدية، بل نتاج تحولات ديموغرافية، واقتصادية، وسياسية، وتدخلات دولية، تُلخصها المصادر في الأسباب الرئيسية التالية:

1. التحول الديموغرافي والاقتصادي (الهجرة المارونية نحو الجنوب) تقليدياً كان الموارنة يتركزون في شمال جبل لبنان (كسروان وبشري) بينما يتركز الدروز في وسطه وجنوبه (الشوف وعاليه). مع الوقت، وبتشجيع من الأمراء الشهابيين، هاجرت عائلات مارونية كثيرة جنوباً للعمل في الزراعة وتربية دودة القز في أراضي المقاطعجيين (الإقطاعيين) الدروز.لاحقاً تحول الموارنة تدريجياً من فلاحين إلى شركاء تجاريين مع أوروبا (وخاصة فرنسا) عبر مرفأ بيروت، مما أدى إلى صعود ثرواتهم وتعليمهم، في حين بقي الإقطاع الدرزي يعتمد على النظام الزراعي التقليدي، مما خلق فجوة طبقية واقتصادية حساسة.

2. التغيرات السياسية وسقوط نظام "المقاطعات" وانحياز الإمارة الشهابية: تحول الأمير بشير الشهابي الثاني (الذي حكم الجبل لعقود) إلى المسيحية، وانتهج سياسة أضعفت النفوذ الإقطاعي التقليدي للمشايخ الدروز (مثل آل جنبلاط)، وصبت في مصلحة الصعود السياسي للموارنة والكنيسة المارونية، مما ولد شعوراً بالغبن والتهديد الوجودي لدى الزعامات الدرزية.ومع بدءالحملة المصرية (إبراهيم باشا 1831-1840) واحتلال بلاد الشام بدعم من الأمير بشير الثاني وبعض القوى المارونية. فرضت الإدارة المصرية التجنيد الإجباري ونزع السلاح من الدروز، واستعانت بمقاتلين موارنة لقمع الثورات الدرزية، مما عمّق الشرخ والضغائن بين الطرفين بعد انسحاب المصريين.

3. انتفاضة الفلاحين الموارنة (كسروان 1858) قاد شاب ماروني يُدعى طانيوس شاهين ثورة عامية (فلاحية) ضد الإقطاعيين الموارنة في شمال الجبل (آل الخازن).انتقلت أصداء هذه الثورة الفلاحية والمطالبة بالعدالة والمساواة إلى مناطق الجنوب (المختلطة بين الدروز والموارنة). خشي الإقطاعيون الدروز أن تؤدي هذه الروح الثورية إلى إشعال فلاحيهم الموارنة ضدهم، فتحول الصراع الاجتماعي الطبقي (فلاح ضد إقطاعي) سريعاً إلى صراع طائفي (ماروني ضد درزي).

4. التدخلات الاستعمارية (لعبة الأمم) تحول جبل لبنان إلى ساحة صراع دولي بين القوى العظمى ، فرنسا تبنت الطائفة المارونية والمسيحيين كحامية لمصالحهم وبريطانيا دعمت الطائفة الدرزية لإيجاد توازن سياسي يمنع التمدد الفرنسي ،أما الدولة العثمانية (التي كانت تطبق إصلاحات "التنظيمات") استغلت هذا الصراع أو غضت الطرف عنه أحياناً لإضعاف الحكم الذاتي في الجبل وتسهيل فرض سيطرتها المباشرة بعد سقوط نظام الإمارة.

5. الفشل الإداري (نظام القائممقاميتين)بعد سقوط الإمارة الشهابية، قسّم العثمانيون الجبل عام 1842 إلى قائممقاميتين: شمالية مسيحية وجنوبية درزية.كان هذا التقسيم فاشلاً لأن آلاف الموارنة كانوا يعيشون في القائممقامية الدرزية (تحت حكم درزي)، مما أدى إلى احتكاكات يومية مستمرة غذّت الاحتقان حتى اندلعت الشرارة الشهيرة عام 1860 (التي بدأت بنزاع بين فتيان في دير القمر) وتحولت إلى مجازر دامية انتهت بتدخل دولي وتأسيس نظام "المتصرفية".

بالتأكيد، في القراءة التاريخية الرصينة، يُجمع المؤرخون على أن النزاعات الفردية أو المشاجرات الصبيانية التي سبقت انفجار عام 1860 لم تكن أبداً الجوهر، بل كانت مجرد "شرارة" أو "فتيل تفجير" سقط في برميل من البارود كان يمتلئ بالاحتقان على مدى عقود وكانت الأرضية مهيأة تماماً للانفجار بسبب التراكمات التي ذُكرت أعلاه وتُختصر بشحن طائفي ونفسي غير مسبوق غذّته القوى الخارجية والداخلية وأزمة وجودية لدى الزعامات الدرزية التي شعرت أن بساط النفوذ والتاريخ يُسحب من تحت أقدامها لصالح الصعود الماروني المدعوم فرنسياً وثورة فلاحية مارونية في الشمال جعلت الإقطاع الدرزي في الجنوب يعيش قلقاً مستمراً من تكرار السيناريو ضده والخلاصة التاريخية الأزمة كانت أزمة بنية نظام سياسي واجتماعي هذا ما كان وهذا ما هو كائن حتى الآن ونعيشه في حاضرنا